في أزمة النقد العربي المعاصر

بقلم رجاء النقاش

أزمة النقد العربي لا تقف عند حد المجال الأدبي بل تتعداه إلى غيره من المجالات ، فهناك أزمة عامة في الموقف النقدي إزاء أشكال الفن المختلفة في المسرح والسينما وغيرهما. والواقع أن هذه الأزمة النقدية مرتبطة بالأزمة العامة في الفن ، ونعني بالأزمة الأخيرة عدة مظاهر ، من أهمها العلاقة بين الأثر الفني والحياة فإن علاقات الأفراد ومستوياتهم، في واقعنا لم تتأثر بعد بالفن الذي يظل إلى حد كبير محصوراً في الكتاب فلا تتداوله إلا المجالات الخاصة ، أما بالنسبة للمسرح والسينما ، فمضمون النظرة الغالبة اليها هو الرغبة في التسلية التي تنشأ طبيعياً في نفس الفرد كلما عجز عن إيجاد معنى لحياته يخرجه من المستوى الذي يتحول الزمن فيه إلى فراغ مخيف ، تتساوى معه الجريمة والتسلية والعمل اليومي الرتيب في انها تكوّن المصدر الذي يستقي منه الفرد هذا المعنى اللازم الذي لا يمكن ان تستقيم الحياة بدونه .

وهذا المظهر من مظاهر أزمة الفن له دلالته على مدى تخلف النقد عندنا في تأدية وظيفته ، وكذلك على المستوى الانساني الذي يعيش فيه الفرد العربي اليوم . **والواقع انه ينبغي ان نبحث عن أزمة الفن لا في عملية انتاجه ومستوى هذا الانتاج فحسب، بل ايضاً في مدى قابلية الواقع للتأثر به والاستجابة له .** وعلى هذا الأساس نحب ان نشير إشارة عامة إلى ازمة الانسان العربي ، ونحن بسبيل الحديث عن ازمة النقد التي شاركت في اعطاء صفة سلبية للعلاقة بين المؤثر الفني والقارىء ، حتى نكون على وعي بالمجال الذي نشأت فيه هذه الأزمة حيث لا يمكننا فصلها عن غيرها من أزمات واقعنا الراهن في الفن والحياة .

وأزمة الانسان العربي ناشئة عن عوامل متعددة ، ابرزها ما فعلته بقسوة قوى الاستعمار (١) بضغطها على امكانياته ، والعمل على تجميده دهراً طويلاً عند مستوى منحدر من الانسانية حيث وقفت رغباته وحاجاته عند ذلك الطور البدائي الذي تتشابه فيه الأفراد وكأنها نسخ من كتاب واحد . وقد نتج عن المشاكل التي اقترنت بوجود الاستعمار أن أصبح واقع الحياة شاقاً قاسياً بحيث يخرج الفرد من الصراع القائم بينه وبين هذا الواقع بما يصيب طاقاته الانسانية بالتخدر الشديد ، ويجمّد ملكاته الخالقة التي لا يتاح لها النمو إلا في بيئة نفسية تتمتع بالهدوء وعدم التشتت ، مما لم يتح للشخصية العربية طيلة ماض طويل ، غني بالألم والعواصف التي ظلت تزلزل من هذه الشخصية حتى اصابها ما اصابها من تخدر وعجز عن الخلق والتذوق .

وهناك عامل آخر في هذه الأزمة الانسانية ، **هو تراكم غفلة الفرد العربي عن الكشف عن حقيقة شخصيته في التاريخ والحاضر الحي ، حتى يستغل امكانياته الطبيعية ويلائم بين فهمه وواقعه الذي يعيش فيه .** ولعل اضطرابه وقلقه ازاء التيارات الحضارية المختلفة بين عربية قديمة وغربية معاصرة ، وكذلك عجزه الى حد كبير عن مواجهة الادعاء الاسرائيلي الذي يقول بوجود مبررات تاريخية تؤكد لاسرائيل حقها في وطن قومي بفلسطين ، راجع الى هذا العامل الثاني من عوامل ازمته .

ونحن اليوم في مطلع مرحلة جديدة من مراحل تاريخنا أبرز ما نحتاج اليه هو النزوع الى البناء ، ومراجعة رصيدنا الراهن في مختلف مجالات الحياة ، حتى نتمكن بذلك من توجيه تاريخنا إلى المجال الذي يخدم انسانيتنا بعد ان انحرف عنه طويلاً ، ولم يعد هناك لدى الاتجاهات البنائية الواعية في حياتنا من خلاف في أن الفن ذو ضرورة اجتماعية ، تنبعث مما يحدثه من آثار في وجدان الانسان تزيده غنى وحساسية مما يترك أثره المباشر على طبيعة العلاقات الانسانية بين الافراد ، وطبيعة الاحساس بالمسئولية خلال المواقف المختلفة في الحياة . وقد اقترنت انبعاثات الحضارة الانسانية في مختلف صورها بنشاط الطاقة المبدعة في الفن ، وإذا كنا نعني بالتقدم الحضاري معنى أوليا بسيطاً هو : ارتفاع قيمة الانسان ، كانسان ، في بيئته ، فان من الطبيعي ان يقترن هذا التقدم دائماً با لتقدم

١) نحن نقصد هذه الكلمة بمعناها الواسع بحيث تشمل الخطر الذي ينشع من وجود اسرائيل في وضعها الراهن ، وكذلك الخطر المنبعث من بعض التيارات الثقافية التي تأتي إلى العالم العربي من خارجه أو تنشأ فيه ، وتعتمد في مقوماتها على تغذية مستوياته البدائية وتنمية سلبيته في موقفه من الحياة بابعاده عن حياته الحقيقية وشغله بغير مشكلاته وأزماته .

عدد ممتاز

خاص بالشعر

تصدر مجلة « الآداب » في مطلع العام القادم (اي العدد الاول من السنة الثالثة) عدداً ممتازاً خاصاً بالشعر ، يضمّ دراسات ضافية عن الشعر العربي الحديث في مختلف الاقطار العربية ومجموعة من احدث قصائد كبار الشعراء العرب ، فضلاً عن الابحاث والموضوعات المتنوعة التي تمتّ الى الشعر بصلة . وستنشر في هذا العدد نتائج مسابقة « الآداب » في الشعر . هذه المسابقة التي انتهى اجلها هذا الشهر . ترقبوا هذا العدد الممتاز .

الفني ، وهو نتاج نشاط الطاقات الداخلية في الانسان والتي تعتبر جوهره وحقيقته ، بل إننا نؤمن بالفن كمرصد أمين للتقدم الانساني ، وباعث صادق على الأمل في المستقبل دون غيره من وجوه النشاط المختلفة . وقد اصبحت الأدلة كافية بعد تجربة الحربين العالميتين الاخيرتين وانهيار معالم كثيرة من الحضارة المادية خلالها ، لاقناعنا من جديد بأن الفن هو أجدر الجوانب بتمثيل الانسان تمثيلاً صادقاً في تقدمه ورقيه ، وفي توتره الذي يمهد السبيل ويهيئها لتطوره.

وأي مرحلة جديدة من الحضارة انما تعتمد في بنائها على طاقتين : إحداهما ارادية منظمة ، تؤدي دورها نتيجة الاحساس بضرورة تغيير الوضع الحضاري الراهن وعلى أساس وعيها بحاجات هذا التغيير ، والأخرى خالقة مبدعة لا يتحكم فيهما قانون يمكن تحديده وتنظيمه ، لأن الابداع لا يلتزم اولاً إلا ذاته في نشأته وتطوره ، وغالباً ما يبدو مختصراً في صورته الأخيرة مراحل قبلية مما يجعله بمثابة الطفرة والوثبة . ومن الطبيعي ألا تنفصل الطاقتان انفصالاً تاماً ، إذ أنها تتعاونان في سبيل إعطاء المرحلة الحضارية صفتها الأخيرة ، وتهيئتها للتقدم إلى مرحلة أخرى ؛ ولكننا نستطيع ان نقول إن القسط الاكبر من المسؤولية إنما يقع على عاتق الطاقة الارادية أولاً ، فهي التي تنشط القوى المبدعة وتهيىء بشتى الوسائل ، التراث الذي تعتمد عليه ، بل هي التي تخلقها أحياناً بتنميتها للبذور الكامنة في الكيان الداخلي للأفراد ، وما اكثرهم ، في المراحل القلقة من تاريخ الحضارات ، هؤلاء الذين يتمتعون بمواهب وطاقات خالقة ، تتعرض للضياع لأن أصحابها لا يملكون الشجاعة على الاستبطان الأمين لحقيقة شخصيتهم ومعاناة تجربة الخلق ، خائفين من الفشل او غير واعين تماماً بالمسالك التي تؤدي إلى تأكيد ذواتهم كمبدعين بعد اكتشافها والوعي بها ، مما يستطيع أن يؤديه هؤلاء الذين اختاروا الدراسة والمتابعة على اساس من الوعي والوضوح .

والنقد الأدبي هو هذه الطاقة الارادية حين تتخصص في مجال الأدب ؛ وعلى هذا المجال نريد أن نقصر حديثنا بعد أن ربطنا بين أزمة الموقف النقدي وأزمة الحياة والفن . والنقد الأدبي يؤدي دوره عموما في ثلاثة مجالات متصلة مترابطة : أولها الفنان وثانيها العمل الفني ، وثالثها القارىء . فهو يدرس الفنان وعمله أو أحدهما بقصد الكشف عن كل الظروف التي أحاطت بعملية الخلق ، وكل العناصر التي كونت العمل الفني ، كما يقوم الناقد بعملية استبطان لانفعالاته الوجدانية واستجاباته الذهنية للعمل الفني كقارىء ؛ وهو هنا يخلق العمل الفني من جديد فيما هو يعيش تجربة شرحه وتفسيره من خلال ذاته ؛ والناقد في هذا كله إنما يستعين بأدوات متعددة تتركز اخيراً في ثقافته وذوقه ، على ان يتضمن مفهوم الثقافة التمثل الواعي للدراسات الموضوعية للمدارس والمراحل الأدبية المختلفة التي أخذت صورتها الكاملة المتميزة في التاريخ ، وكذلك على معاصرة اتجاهات مجاله الأدبي ، بحيث يقف على

كل تطوراته وامتداداته . ويتضمن مفهوم الذوق المقياس الأخير الذي كونته الخبرات القرائية والانسانية المختلفة ، ويكاد هذا المقياس أن يكون جوهر شخصية صاحبه إذ يتضمن كل صفاته واتجاهاته التي تحدد لون استجاباته للمؤثر الفني ووعيه له . ومن هنا نتبين ان الثقافة تكاد تكون هي الكاشفة عن شخصية الناقد والمنمية لصفاته وخصائصه ، بينما يمثل الذوق خلاصة عملية الكشف والتنمية التي تقوم بها الثقافة في شخصية الناقد ، ومن ذلك نخلص إلى حقيقتين لهما أهمية كبرى في فهمنا للنقد ، أولاهما وتكاد تكون بديهية ولكنها في واقعنا تحتاج إلى تأكيد طويل ، - هي ضرورة الثقافة للناقد ، وثانيتهما أن الذوق مكتسب إلى حد كبير ، ومن الممكن توجيهه وتنميته بالكشف الثقافي والعادات المكتسبة من القراءات الواعية والخبرات الانسانية العميقة .

ولو حاولنا أن نقوم بعملية استقراء للوضع الراهن للنقد العربي لوجدناه يؤدي دوره في نطاق اتجاهات ثلاثة ، أولها اتجاه يعتمد على التراث العربي القديم في النقد ، وثانيها يعتمد على التراث الغربي ، ويتمثل ثالثها في المحاولات الذاتية.

وسنحاول رسم بعض مظاهر الأزمة النقدية والحلول الممكنة ، تبعاً لفهمنا لوظيفة النقد ومقوماته ، من خلال حديثنا عن هذه الاتجاهات الثلاثة لنرى مدى صلاحيتها لخلق نقد عربي معاصر بصورتها الراهنة . ولن نحاول أن نتكلم عن هذه الاتجاهات إلا في خطوطها العامة دون اعتماد على تقديم النماذج والأمثلة التي تحتاج إلى مجال أوسع ، كما أن أحكامنا على هذه الاتجاهات لا تقصد إلى التعميم والاطلاق بل تعني الظواهر الغالبة في كل اتجاه .

★

فالتراث العربي القديم في النقد ، ومنه المرحلة البلاغية في مختلف صورها ، نشأ في بيئة فنية كان مجموع الاشكال فيها هو الشعر في قالبه المعروف : القصيدة ، والنثر في صوره البدائية فيما عدا كيان نثري واحد هو القرآن الذي اخذ صورة أكمل وأنضج من حيث بناؤها الفني واحتل مكانا كبيرا كموضوع للنقد الادبي . مثل هذه البيئة الفنية تختلف اختلافاً جوهرياً عن وضعنا الادبي المعاصر حيث تعددت الاشكال الادبية وكذلك تعددت الاتجاهات داخل نطاق الشكل الواحد ، ولم يقف شكل جديد في الادب العربي الحديث عن التأثر بتيارات متعددة ، مما نتج عنه تطور مختلف في الدرجة والقيمة لهذه الاشكال - ومثل هذا الاختلاف بين الادب العربي الحديث والادب العربي القديم ، يفقد الموقف النقدي القديم ، المرتبط بالواقع الفني لعصره ، كل امكانياته على التلاؤم مع واقعنا الادبي الراهن او تأدية دور ما بالنسبة له .

وبالرغم من تحدد بعض اجزاء التراث القديم في التاريخ ، الا ان تصنيفه فنياً واستخلاص مدارس واتجاهات مختلفة فيه يكاد يكون غير ممكن ، مما اثر في طبيعة الموقف النقدي الذي بدا محصوراً في مجال واحد ضيق فكانت مشكلاته معروفة لا تتغير . وقد قامت محاولات تريد ان تتطور بالادب العربي من الخارج دون ان تخلق فيه تطوراً حقيقياً ما ، اذ لم يحدث ان قام اتجاه نقدي يدعو لخلق شكل جديد ، او تحطيم تقليد قديم في الاشكال القائمة او غير ذلك ، مما يدل على ان النفس العربية قد سارت في خط اتجاه حضاري واحد لم تتغير فيه تغيراً أصيلاً قط . اما هذه المحاولات التي أشرنا اليها كالنقائض ، او الحركة التي تزعمها مسلم وابو تمام ، أو المقامات ، فليست إلا تضخيماً لبذور سابقة عليها في الادب العربي ، فكانت بمثابة محاولات ذهنية لم تصدر عن تطور له مقدمات وامتدادات في النفس العربية ، أو عن حركة نقدية قامت نتيجة للشعور بالحاجة الى اشكال فنية تنقل هذه النفس الى آفاق جديدة غير تلك التي كانت تستغرقها في المراحل السابقة لنشأة هذه الحركات المحدودة الضيقة .

وفي مرحلة تاريخية طويلة من مراحل النقد العربي القديم نراه قد اخذ صورة البلاغة المتأثرة بالمنطق اليوناني والتي حاولت ان تضع قواعد ثابتة للقيم الجمالية في الادب باعتبار مفهوم يحدده على انه الاشكال الفنية التي وجدت عند العرب. ومن هنا احتلت مشكلة اللفظ والمعنى أكبر مكان في نطاق المشاكل النقدية ، وأدى هذا بالضرورة الى ان يهمل النقد قيم الادب الجمالية في حدود الاشكال الاخرى كالقصة والمسرحية ، بل والشعر كيان فني تتكامل وحداته دون ان تنفصل او تتجزأ ، مما ينتج عنه عجز آخر في الموقف النقدي القديم عن التلاؤم مع هذه الاشكال الجديدة وما يتصل بها من مشكلات .

ولنأخذ بعد ذلك التراث الغربي وهو - الاتجاه الثاني الذي يعتمد عليه نقدنا المعاصر ، وقد سار هذا التراث في نشأته بخطى طبيعية مرتبطة بالمراحل الجديدة التي كان الأدب الغربي

- البقية على الصفحة ٦٣ -

في ازمة النقد المعاصر

– تتمة المنشور على الصفحة ١٠ –

يمر فيها ، والتي لم يكن لها في عصرها تيار مشابه في ادبنا ، وإنما تأثرنا بها بعد ذلك وعلى الخصوص بعد ابتداء القرن العشرين. والحقيقة أن تطورنا في المرحلة الراهنة إنما يعتمد على المفاهيم الأدبية التي استخلصناها على اثر اتصالنا بالأدب الغربي، ووفقنا في أن نجعل البعض ملائماً لحاجاتنا ، وإن كنا قد أخذنا الآخر على علاته واكتفينا بمحاولة تقليده ، مما ترك أثره في خلق الاضطراب والقلق في أدبنا دون المشاركة في تطويره وتوسيع آفاقه .

والنقد الغربي يعتمد في موقفه من الأعمال الفنية على اتجاهات متعدده ، منها المستمد من المدارس الفنية نفسها كالكلاسيكية والرومانسية والرمزية ، ومنها المرتبط بمفاهيم فلسفية معينة تحدد ماهية الانسان وتدعو الى أدب يؤكد هذه الماهية كالماركسية والوجودية ، ومنها المعتمد على دراسات علم الجمال التي اتسعت واصبحت ذات قيمة وخطر . وهناك اتجاه كبير يعتمد على الدراسات السيكلوجية التي تقدمت وتطورت في دراساتها للعبقرية الفنية ، ولعملية الابداع ، واستجابات القارىء ؛ وبعض أصحاب هذا الاتجاه هم أنفسهم من علماء النفس كفرويد وأدلر ، ويونج – مع ملاحظة أن كل اتجاه من الاتجاهات السابقة يختلف إلى حد متفاوت في المجال الذي يؤدي فيه دوره من الفنان أو العمل الفني أو القارىء .

وقد تأثر النقد العربي المعاصر بهذه الاتجاهات، ولكنه التأثر الجزئي الناقص بحيث لا نستطيع أن نميزها فيه بالقدر الذي تتميّز به في النقد الغربي ، لا بقدر قريب منه ، بل إن الدراسات الجمالية مثلاً لم يكد يظهر فيها عندنا إلا بعض الكتب المترجمة دون أن يكون للاتجاه الجمالي نفسه وجود في أدبنا على الاطلاق ؛ وإذا كان الاتجاه السيكلوجي من أبرز المؤثرات في دراساتنا النقدية الحديثة ، فإننا بالرغم من ذلك لا نستطيع أن نميز اتجاهاً عاماً ينزع الى فهم الأدب ودراسته هذا المنزع ، لا في دراسات جماعة من النقاد ولا في دراسات ناقد واحد . أما تصنيف الأدب حسب المدارس الأدبية كالكلاسيكية والرومانسية والرمزية ، فإنه يدخل إلى حد ضمن عناصر الدراسات النقدية عندنا ، ولكنه عنصر ناقص لأن هذه المدارس الفنية قد نشأت في غير الأدب العربي وفي ظروف من الحياة وتاريخ الأدب لم تكمل تماماً في مرحلة من مراحل أدبنا القديم أو المعاصرة. وإلى جانب ذلك فإن هذه المدارس غير مفهومة في أدبنا إلا لدى المتخصصين ، ونحن نعني بفهمها أن تكون الآثار الأدبية التي تمثلها منقولة إلى العربية نقلاً سليماً يحمل خصائصها ومقوماتها ما أمكن ذلك ، وأن تكون هناك دراسات وعت هذه المدارس وتمثلتها بحيث تقدمها في صورة يمكن أن تترك آثارها الصحيحة لدى القارىء والمبدع ، ليتمكنا من الربط بينها وبين ما في شخصيتيهما من نزعات وحالات مختلفة ، وبذلك يكون القارىء على استعداد للتمييز بين هذه الاتجاهات الناشئة في أدبنا ، ويكون المبدع نفسه مهيأ لفهم الطريق الذي يسلكه ، وتأكيد قيم الاتجاه الذي اختاره تبعاً لتكوينه النفسي .

وهنا لا بد أن نقول **إن التراث الغربي في النقد كالتراث الغربي في الفن أجدر تراث إنساني بأن نهتم به ونعتمد عليه في مرحلتنا الحضارية الجديدة ، بعد أن نلائم بينه وبين حاجاتنا ، هذه الملاءمة التي لن تتوفر إلا باستيعابه وفهمه أول الأمر ، واستبطان استجاباتنا له والهزات المختلفة التي يحدثها في واقعنا لتأكيد ما يتلاءم معنا من قيمه وحالاته .**

ومما لا شك فيه أن التراث الغربي يعتبر من أبرز القوى التي ساعدت على تفتيح شخصيتنا وإخراجها إلى مجال اوسع مما كانت محصورة فيه من قبل . واذا كنا قد خطونا خطى أكثر ايجابية في مواجهة القوى الاستعمارية فمن الحق ان نقول إن الثقافة التي وعيناها عن الغرب كانت أحد العوامل الرئيسية التي مهدت لخلق وعي بالاستعمار وما يرتبط به من أخطار ، ذلك لأن الثقافة الغربية التي نعنيها ثقافة إنسانية واسعة قبل ان تكون إقليمية محدودة ، بل إن التاريخ ليسجل لنا أن بعض مفكري الغرب وفنانيه قد سبقونا في الوعي بمشاكلنا والدفاع عن قضايانا في أعمالهم ، وحسبنا أن نذكر الموقف الذي وقفه برناردشو من حادثة دنشواي في مسرحية « جزيرة جون بول الأخرى» ،فإن انفعال المصريين ووعيهم بها لم يكونا من القوة بالقدر الذي ظهر عند شو .

فالاتجاهات النقدية المختلفة من جمالية وسيكلوجية ومذهبية هي التي ستهيىء لنا الوعي المطلوب لخلق حس نقدي يؤثر بايجابية في تنمية الاتجاهات الأدبية وخلقها ، ولكن ينبغي أن تدخل إلينا هذه الدراسات بشكل منظم يرتبط بالأعمال الفنية

التي ارتبط بها فعلاً في الغرب ، لأن الدراسات المجردة لن تجدي شيئاً بالنسبة للقارىء والمبدع ما لم تتضح بالتطبيق على الأعمال والحالات التي ارتبطت بها عند ظهورها.

ومن الواضح أن التراث العربي في النقد يختلف بالنسبة إلينا كل الاختلاف عن التراث العربي القديم الذي لا يمكن كما قلنا أن يتلاءم مع واقعنا الأدبي الراهن . فنحن في الحقيقة إنما نتجه ، تلقائيا ، في تطورنا إلى المستويات والآفاق التي وصل اليها الغرب ونبتعد بنفس الدرجة عن المستويات والافاق العربية القديمة ، بل إن هذا هو مقياس تقدمنا الحقيقي مما يحتم علينا أن نبذل جهودنا في تمثل هذا التراث الذي نتجه إليه ونحاول أن نرفع كياننا إلى مستواه ، هذا التمثل الذي يتم عن طريقين : الترجمة الأمينة الدقيقة ، والدراسة الواعية المكتملة – على أن هذا لايعني أننا نلقي بتاريخنا بعيداً وننكره بقدر ما يعني أننا نعترف به ولكننا نحاول أن نوجه خط سيره الذي رفضناه ، وجهة تتلاءم مع وضعنا العصري الراهن.

★

بقي الاتجاه الثالث في نقدنا المعاصر وهو الذي يعتمد على المحاولات الذاتية في فهم الادب وتمثله . ويمثل هذا الاتجاه احياناً افراد لا تشترك نظرتهم إلى الفن في خط واحد ، وإن اشتركت في صفتها الذاتية . ويدخل ضمن هذا الاتجاه أيضاً التيارات المختلفة التي حاولت أن تدافع عن قضايا نحو « علاقة الأدب بالحياة » واخذت صورة جماعية بعض الشيء في محاولة القضاء على فهم الأجيال السابقة ، ونزعت – وخصوصاً في مصر – نزعة تدميرية في تأدية هذا الدور .

وهذا الاتجاه الذاتي ، في صورته التي يمثلها الأفراد يعيبه أنه يظل مرتبطاً بالمراحل الراهنة في ادبنا دون أن يسبقها ليبشر بمراحل أخرى ظهرت في الآداب الأنسانية عن طريق دراستها وتوضيحها ومحاولة الدعوة اليها ؛ الى جانب انه يعتمد في فهمه للأدب على نقطة بدء غالباً ما تكون قد سُبق اليها من نقاد غربيين ، أو دُرست من جهة نظر أكثر عمقاً ، مما يفقد هذه المحاولات قيمة المعاصرة ، والوصول الى القضايا الرئيسية دون مقدمات طويلة تعتبر تكراراً لجهود سابقة وتكون في ذاتها عائقاً عن الوصول الى تلك القضايا المطلوبة (١) .

وكثيراً ما نتج عن هذا الاتجاه الذاتي في النقد خلافات متعددة حول ماهية الأدب ، وعلى الأخص في هذه التيارات التي حاولت مواجهة الجيل القديم بمفهومات جديدة تحاول – كما قلنا – اثبات قضايا على رأسها علاقة الأدب بالحياة . وقد وصلت هذه الخلافات أحياناً الى مرحلة من التجريد المسرف فقدت قدرتها ، كما هو طبيعي ، على خلق المفهومات الجديدة . ذلك لأن الخلافات حول ماهية الأدب لا تؤدي دوراً ايجابياً الا في حالة واحدة هي الدراسة الموضوعية الكاملة لهذه الماهية ، مع اقتران بالتطبيق على أعمال فنية مختلفة ، أو ان تكون هذه الدراسة حول الماهية مستمدة أصلا من اعمال موجودة وجوداً سابقاً ، وبذلك تقوم في هذه الحالة على اختلاف صورها بدورها البنائي ، اما في حصر النتائج الايجابية التي توصل اليها الدارسون وحققها المبدعون في هذا المجال ، او في تأصيل اتجاهات ناجحة في ادبنا يمكن ان تأخذ صوراً أنضج وأكمل لو وعاها النقد وعني بدراستها .

والى جانب اعتماد هذه التيارات على التجريد بما في ذلك من تعريض الاحكام والمفاهيم للخطأ فانها تحاول اعطاء صفة تدميرية للعلاقة بين اجيالنا ، وترد ذلك الى اختلاف تمثل الاجيال لماهية الأدب . والواقع ان هذا الخلاف حول الماهية لا يحتاج

(١) من أمثلة هذه الدراسات كتب سيد قطب في النقد الأدبي ، إذ كثيراً ما كان يبذل جهوداً طيبة لدراسة قضايا تعتبر من المسلمات العامة لدى النقاد الغربيين ، إلى جانب أن نظرته إلى تلك القضايا أضيق وأقل عمقاً .

صدر حديثاً

الأيدي القذرة

المسرحية العالمية الشهيرة

تأليف جان بول سارتر

نقلها الى العربية

سهيل ادريس   اميل شويري

واهدياها

الى الحزبيين وقادتهم في العالم العربي

في صراعهم بين المبدأ والوسيلة

الحلقة الاولى من سلسلة روائع المسرح العالمي

دار العلم للملايين

ليتضح الى تلك النزعة التدميرية التي تصدر في الحقيقة عن مرض نعانيه كظاهرة واضحة في مختلف مجـالات الفكر والفن ، وذلك هو تضخم عناية الكاتب بالقيمة الاجتماعية لكتابته قبل اي شيء آخر ، ونعني بالقيمة الاجتماعية ما تحققه الكتابة لحياة هؤلاء من معنى يشغلهم ويشبع نرجسيتهم وفراغهم الداخلي الحاد ، وبذلك يفقد الكاتب الاخلاص لعمله والتفاني فيه على انه عمل ذو ضرورة انسانية لا يعني الحياة والناس منها إلا ما تكشفه من حقائق ، وتشارك فيما يمتلىء به الواقع من مشكلات وازمات تتجدد وتتعقد باستمرار في عالمنا المعاصر : والنتائج الواضحة التي ترتبت على هذا المرض استغـلال كلمتي الفن والحياة بشكل لولبي ، لا يقصد الى اقرار قيمة وإنما يغطي عجزاً وقصوراً في تمثل المفهومين والربط بينهما في عمل يشبع نزوعنا الى البناء والتغيير . وهذا الاستغلال الخاطىء لمفهومي الفن والحياة في صورة تجريدية ، يؤكد لنا ما قلناه من ان الخلافات الطويلة حول ماهية الادب لن يكون لها قيمة ما دامت قائمة على اساس الفصل والتجرد من مرحلة التطبيق على الاعمال السابقة بشكل واضح ودقيق ، او على غير ارتباط بحركة بنائية تسعى لتأكيد مفاهيم مدروسة ومتمثلة في الذهن والنفس تمثلاً عميقاً . كما هو الحال مثلاً في المفاهيم الوجودية التي يعرضها سارتر في دراساته النقدية المختلفة ويحققها على نطاق واسع في مسرحه وقصصه . كما يحـاول تطبيقها من خلال دراساته لأعمال فنية مختلفة في الشعر والمسرح والقصة .

صدر حديثاً

١٠ قصص عالمية

تمثل انتاج الجيل الجديد من ادباء القصة في العالم
وقد فازت بجائزة جريدة « نيويورك هيرالد تريبيون »

نقلها عن الفرنسية

الدكتور سهيل ادريس

دار العلم للملايين — بيروت

الثمن ١٥٠ قرشاً لبنانياً او ما يعادلها

على أننا نحب أن نقف قليلاً أمام مشكلة العلاقة بين الفن والحياة التي كثيراً ما شغلت التيارات النقـدية المنطوية تحت الاتجاه الثالث في النقد العربي الحديث وهو الاتجاه الذاتي . فهذه المشكلة في الواقع أصبحت إحدى المسلّمات العامة التي لا تفتقر إلى الدراسة والتأكيد ، فإن النظرة الواعيـة إلى الواقع الراهن في المجال الانساني على عمومه ، أو في المجال العربي خاصة ، تستطيع أن تميز ملامح أزمة تضغط بشدة على الانسان ، وتكاد تخلق في حياته مأساة عامة سواء بالنسبـة لمصيره ، أو بالنسبة لنشاطه المبدع الذي مكنه في الماضي من خلق بنايات حضارية لها قيمتها وخطرها . ومما لا شك فيه أن عالمنا الحديث قد اصبح أشد وعياً للتناقض القائم في مقولات الوجود العامة ، وأصبح على أساس هذا الوعي اكثر معاناة للألم المفزع الذي طالما عذب « إيفـان » في « الاخوة كرامازوف » فرفض بسببه العالم ورفض الله ، كما توفرت لعالمنا امكانيات التدمير العنيفة الناتجة عن استغلاله للمادة بعد فهم دقيق لأسرارها . فالحالة الراهنة للعالم هي الترقب في قلق واضطراب ، أملاً في الخلاص ، او المصير بلا مأساة ، ومثل هذه الحالة الانسانية العامة لا يمكن ان ينتج عنها ادب غير مرتبط ومتأثر بها ، حتى لقد اصبح من الممكن ان نـنزع التعاريف السابقة للادب ، ونقول إنه **« التعبير عن الازمة »** كتعريف موجز له يحدد وظيفته في مرحلتنا الانسانية المعاصرة. وهذا هو في الواقع ما تحققه الاتجاهات الباردة في ادب العالم فهو » في العبد » لفوكـنر ، و « جرذان وبشر » لشتاينبيك ، و « طرق الحرية » لسارتر و « حذار من الشفقة » لستيفان زفايـج ، وشعر « تي . إس . إليوت » وبعض الاعمال الناجحة في ادبنا العربي . وعلى ذلك فان قضية العلاقة بين الأدب والحياة تعتبر كما قلنا مسلّمة عامة لا تحتـاج الى أدلة وبراهين بقدر ما تحتاج إلى تمثل وتطبيق واعيين ، وحتى ذلك الأدب الذي يصور الحب والوجدانات الذاتية المختلفـة لا يمكن أن يلغي الأزمة التي تحيط بهذه الوجدانات ذاتهـا ما دام صادقاً في معاناتها ، فما أشبهنا في وضعنا الراهن بأشخاص « وقف التنفيذ » لسارتر ، هؤلاء المهددين بشبـح الحرب المقبلة ، والذين كانوا يتصرفون في سلوكهم وتأملهم للعـالم واستبطانهم لانفعالاتهم المختلفة وهم في إحساس عميق بالمأساة التي تدفع بهم عن طريق مباشر او غير مباشر إلى مجالها المفزع فيحسون أنهم على أبواب المصير المجهول ، المصـير الدموي

العنيف للانسانية المعاصرة .

✶

وبذلك تعتبر نقطة البدء المطلوبة في النقد العربي المعاصر متقدمة على مشكلة العلاقة بين الفن والحياة باعتبارها إحدى المسلمات العامة التي تتأكد من تلقاء ذاتها إزاء الأزمات العنيفة التي يمر بها الانسان المعاصر . وكذلك يختلف اتجاه النقد في مرحلته المقبلة عن ذلك الاتجاه الذي يمثله التراث العربي القديم الذي ما زال محتلاً مكانه من النقد العربي الحديث ، حيث يحاول ان يتلاءم مع الاشكال كالقصة والمسرحية والتطورات المختلفة للشعر غير واعٍ بان تغير الاشكال إنما يعني في حقيقته تغيراً عميقاً في النفس العربية التي اخذت تنزع الى آفاق من التحرر ، وتشعر بالحاجة الى تصوير ألوان من الصراع الانساني تعيش فيه اليوم إزاء أزماتها ومشكلاتها المختلفة ، مما لا يتحمله الادب العربي القديم أو امتداد له ، ولا تستطيع ان تعيه مقاييس ذلك الادب بأشكاله المعروفة حينذاك ، مما يؤدي الى ضرورة تغيير تلك المقاييس القديمة التي ما زالت تمثل اتجاهاً واسعاً في واقعنا النقدي المعاصر حيث لا نعدم من يدرس المسرحية أو القصة وكأنه يدرس قصيدة عربية قديمة مع عناية بالقيم الخارجية في الاعمال الفنية المختلفة ، ومنها الشعر نفسه ، مما كان يميز النقد القديم بوضوح .

كما تعتمد المرحلة المطلوبة في النقد العربي الحديث على استيعاب التراث الغزلي في مجال القصة والمسرحية والشعر ، ثم استيعاب الاتجاهات النقدية التي ارتبطت بتطور المراحل المختلفة لتلك الاشكال ، والوعي بالدراسات السيكولوجية ، بتطوراتها المختلفة التي لا تتوقف ، باعتبارها من أبرز التيارات التي شاركت بشكل ايجابي في فهم الادب ، واستبطان عالمه الداخلي ، دون الوقوف عند حدوده الخارجية ، وكذلك استيعاب الدراسات الجمالية التي تمثل النقد في صورة متطورة ، فهي شكل جديد من أشكال الموقف النقدي .

ويمكننا بعد ذلك ان نقول ان النقد الادبي عندنا يستطيع ان يؤدي دوره المطلوب بعد ان تتهيأ له الامكانيات الثقافية والذوقية المختلفة في مجالات ثلاثة ليست هي كل مجالاته ولكنها أبرزها في وضعنا الادبي الراهن ، كما أنها تمثل الخطوط الرئيسية دون التفاصيل :

أولها : تحليل الازمة القائمة في الادب بقصد تخطي هذه المرحلة التحليلية لتفتيح الآفاق نحو مستقبل يصبح الأدب فيه اكثر تعبيراً عن إنسانيتنا وتحقيقاً لها في مستوى أرفع ، والتعرض للمشاكل الرئيسية التي ترتبط بالأزمة الأدبية ، كعلاقة الادب بالقارىء ومشكلاته وأزماته ، وضرورة الكتابة ، وعلاقة التكنيك والشكل في صورهما المختلفة المتطورة بقدرة العمل الفني على التعبير الاكثر غنى عن الانسان ، مع ملاحظة ان الأزمة تتفاوت باختلاف الاشكال ، فهي مثلاً بارزة الى حد بعيد في الأدب المسرحي ، بينما تعتبر اقل في الشعر او القصة .

وثانيها : المتابعة الواعية للتطور التلقائي لأشكال الادب عندنا ، معتمداً في ذلك على الملاحظة الدقيقة والبصر السليم لخصائص ذلك التطور في مراحله المختلفة ، وكذلك على الذوق الذي تخلقه خبرات القراءة والحياة ، والذي يتمكن من تمييز العناصر المستحقة للبقاء في واقعنا ومبررات هذا الاستحقاق ، والعناصر التي يجب عزلها عن هذا الواقع حتى لا تعوق تطوره أو تحول بينه وبين النمو والوعي لأزمة الانسان الذي يعبر عنه .

وثالثها : محاولة توضيح المفاهيم التي شعر الناقد بحاجتنا إليها بعد أن استخلصها من دراساته الموضوعية ، وتجاربه القرائية في الأدب العالمي — وتأكيد هذه المفاهيم بشتى الوسائل تأكيداً واعياً سيؤدي إلى مجموعة من التوترات التي تمهد لظهور أدب يحققها ويبرزها إلى الوجود .

القاهرة — **رجاء النقاش**

صدر كتاب

الايدي النظيفة

مجموعة قصص

بقلم

سعيد حسن الصايغ